اللغويون قديماً وحديثاً

بقلم: محمد شيت صالح الحياوي
بغداد

للسلف الصالح من اللغويين والنحاة فضل خالد وأياد بيضاء فيما ملكونا من تراث عظيم حافظوا به على لغتنا العزيزة وضبطوا فيه قواعدها وثبتوا نظمها فأخذها الأبناء عن الآباء واستخدموها جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا ، الأمر الذي يدعونا إلى الاعتزاز والاكبار كما يدعونا إلى الاستفادة مما فعلوا لا أخذاً ونقلا وتعلماً فحسب بل دراسة وتشريحاً وتجديداً ولن يكون اعجابنا على كل حال سبباً يحول دون مراجعتنا واجتهادنا فيما قرروا ووضعوا أو يمنعنا من وزنه بميزان الحقيقة والواقع بعرضه في مختبر التجارب وبوادق العلم وتسليط الأضواء عليه لتحليله وتمحيصه وكشف جوانبه المضيئة أو الغامضة وبيان ما فيه من صلاح أو نقص أو انحراف . فهم أي السابقون وإن كانوا علماء محققين وحكماء مجربين إلا أنهم ليسوا ملكة وليسوا معصومين إذ يعترضهم ما يعترض الانسان من صحة وصواب أو خطأ وانزلاق ، فإن كانوا قد اجتهدوا فمن حقنا أن نجتهد وإن كانوا قد أفلحوا أو فشلوا فنحن مثلهم قد نفلح أو نفشل ، وإننا حين نعيد النظر فيما نظّموا وقعّدوا لا نريد أن نتلاعب في اللغة فنغير شيئاً من أسسها وجواهرها ، ولا نرمي إلى إضاعة ما صنعوا ومحوا ما أقاموا ، بل نحاول نقد أعمالهم في الأمور الفرعية والقضايا الجانبية نقداً ايجابياً أو سلبياً للاستفادة منه في تبديل بعض أجزاء البناء أو اصلاحه أو ترميمه ليكون كاملاً تاماً وبالتالي يكون نفعه أعم وأعظم ، لأننا اليوم في زمن كل ما فيه من أمور الحياة — واللغة منها — يجب أن يبنى على العلم الأجدّ والمنطق الأحكم والحجة الأقوى .

نحن وهُم متفقون في الهدف والغاية ولكننا قد نختلف في الطريقة والأسلوب ، لقد قطعوا أشواطاً بعيدة وساروا مسافات طويلة وصولاً إلى الهدف المنشود ، أما نحن فسنحاول أن نبلغ ما بلغوا وأن نصل أيضاً إلى هدفهم نفسه ولكن بسير أقل وجهد أخف وزمن وجيز وهو بيت القصيد الذي تسهل دونه العقبات وتهون من أجله التضحيات . وهكذا وبناء على ما تقدم تجب إعادة النظر في قواعد العربية بعامة والنحو والصرف بخاصة لتنظيمها تنظيماً طبيعياً غير متكلف وبثوب جديد . وسبيلنا إلى ذلك سبيل المعنيين والمختصين وهو الرأي الخاص والاجتهاد الذاتي والنية الحسنة ، وبهذا نرجو أن ينظر إلى بحثنا التالي وغيره وأن يعطى ما يستحقه من قبول أو رفض والله ولي التوفيق

تقسيم الكلمة مجدداً

قسموا الكلمة إلى ثلاثة أقسام : اسم وفعل وحرف أما نحن فنرى تقسيمهم ناقصاً ومتخلّلاً والأصلح منه — في رأينا — أن نقسمها إلى سبعة أنواع هي :

1 — الاسم : لفظ يدل على معنى تام في نفس غير مقترن بزمن سواء كان المعنى شيئاً أو ذاتياً أو عرضاً يدرك

بالحواس أو بالذهن وذلك مثل :

تراب ماء هواء نار انسان إمرأة ابراهيم خالد وسعيد (علمين) بقرة قلم كتاب ساعة قراءة عِلْم ذكاء موضع بغداد الموصل مغرب حال بالٌ رغبة هباء سراب فوق تحت علٌ دون (هذا دون ذاك) كم كيف كذا متى أينَ أمس الآن ريت هنا ثمّ . قبل وبعد سَأْ (لفظ صوت لزجر الحمار) كخ (لفظ صوت لزجر الطفل) عاق (حكاية وتقليد صوت الغراب ، أو هو الغراب نفسه) .

2 — الفعل — في رأينا — ما دل على معنًى ذهني مستقل بنفسه مقترن بزمان أو طلب قسّموه إلى ثلاثة فروع ماضٍ ومضارع وأمر تقسيماً مقبولاً لكن بعض التسمية غير محكم ، لأن معنَى المضارع هو المشابه أي يشبه الفعل الماضي كما زعموا في حين لا اتفاق بينهما في عدد الأحرف وفي حركاتها بل ان كان ثمة شبه فالمضارع قريب مما سموه فعل أمر فهما متشابهان أي متضارعان ، وبناء على ذلك فالتسمية ضعيفة إلا إذا اعتبرناها اصطلاحاً ولم نستطع ايجاد تسمية مطابقة للمسمى ، ولكننا قد وجدناها في وضع المضارع ووظيفته لأنه كما نعلم يدل على الحال أو الاستقبال أي الحاضر والآتي فهو ذو زمنين لا زمن واحد ومن حقه وحده أن ينسب إلى الزمان فنسميه الفعل الزماني كما يمكن أن ينظر إليه من جهة أخرى كفعل مركب من أحرف أصلية وسابقة لازمة له حيث ندعوه الفعل المركب أو فعل (التأني) لأن سوابقه تجتمع في لفظة (تأني) غير أننا نرجح التسمية الأولى لانسجامها مع تسميه الفعل الماضي .

أما (الأمر) فنرَى تسميته (الفعل الطلبي) لأن معناه ليس أمراً دوماً بل قد يكون دعاء أو غيره كما في — إهدنا الصراط المستقيم — وفي — ربنا اغفر لنا ذنوبنا . وهكذا يكون تعريفه : — فعل الطلب ما دل على الطلب بذاته بصيغة متميزة فلا يعتبر فعلاً طلبياً مثل : عافاك الله ، ولا تندم وآمين وشرباً الماء ... الخ بل دوال على الطلب .

ومن أفعال الطلب صيغة التعجب الثانية مثل أقبِحْ بالجهل وليس هناك فعل ماض جاء على صورة الأمر كما ليس هناك حرف جر زائد . كل ما هناك أن الهمزة في الفعل الطلبي (أقبحْ) وفي ماضيه ما أقبح هي همزة التعدية فهي تنقل المعنَى من الذات في الفعل المجرد (قبُحَ) إلى الغير في الفعل المزيد دالة على الجَعْل أو الادخال أو الوضع وما بمعناها فقولك : أقبح بالجهل معناه أجعل القبح بالجهل أو أدْخله أو ضَعه أو اعتبره .

وما أقبحَ الجهل معناه ما جعلَ القبح ! أو ادخله أو وضعه .

فصيغتا التعجب إذاً هي أفعال اعتيادية مثل أكرمَ أرشدَ أكبرَ إلا أنها ذات استعمال خاص .

يستعمل الفعل الماضي بدلاً من الفعل الزماني مثل : إذا مرضت فاذهب إلى الطبيب وشافاك الله أو بدلاً من الطلبي مثل : أرأيتَك أو أريتك بمعنَى أخبرني كما قد يستعمل الزماني بدلاً من الماضي مثل لم يَنم ، لما يربح .

ومن الأفعال : رأى يرَى رَ ، وفي يفي فِ ، كان يكون يكُنْ يكُ أكُون أكُنْ أكُ كُنْ .

تَعلَّمْ : بمعنيين أطلبْ العلم واعلَمْ

تعالَ : بمعنيين أقبلْ وتَسَامَ . صَهْ : اسكتْ ، مَهْ : كُفَّ أكفف ، هبْ ، دعْ ، ذرْ

2 — الأداة : كلمة محتاجة لا يتم معناها إلا إذا استعملت مع غيرها أو مبهمة يفسرها قرينها أو دليلها . مثل الباء — كتبت بالقلم والفاء — جاء فجاء مسرعاً والتاء — ذهبتْ ذهبتَ ذهبتُ ذهبتِ . وأدوات الجر والنصب والجزم والنفي والعطف والاشارة والموصول والضمائر ... الخ .

ومنها : لدَى لدنْ عند حيثُ مذْ منذُ إذ بينا بينما إلاّ كأيّ كيتَ كلا كلتا ولاسيما وغيرها .

4 — الوسيلة : هناك كلمات تتفق مع أحد أقسام الكلمة من جهة وتختلف معه من جهة أخرى كالتي أطلقوا عليها (اسم فعل) وهو تعبير مغلوط من حيث وضعه وفحواه فهم يعنون الاسم الذي يدل على الفعل أو الذي يستعمل استعمال الفعل فكان يجب أن يقولوا : الاسم الفعلي أو الاسمُ الفعلُ لأن اسم الفعل معناه اسم لفعل ما يميزه عن غيره من الأفعال كأن نقول اللازم والمتعدي أو

المعلوم والمجهول . وشتّان بين المفهوم والموضوع وبين المفهوم والمقصود !

ولو تساهلنا وتجاوزنا التسمية لما انطبق مرادهم إلا على القليل من تلك الطائفة من الكلمات التي يمكن فصلها بحسب أصولها إلى ما يلي :

ا) شتّان (بعُد ، افترق) بَلْه (دع واترك) رُوَيْدَ أخاك (أمهله) مكانك (اثبت) دونك الكتاب (خذه) . أسماء استعملت أفعالاً .

ب) وا ، واهاً ، وَيْ (أتعجب) آه ـ أوّه (أتألم) أف (أتضجر) هي في نظري أسماء لأصوات استعملت أفعالاً .

وهذان النوعان يمكن اعتبارهما أسماءاً أفعالاً كما قصدوا .

جـ) ها وعندك ولديك وإليك الكتاب (خذه) وعليك نفسك وبنفسك (ألزمها) وإليك عني (تنح) هي أدوات تدل على الأفعال أي في الحقيقة أدواتٌ أفعالٌ ولا علاقة لها بالأسماء الأفعال .

د) سَرعان (أسرعَ) مثل لسرعان ما صنعت كذا ـ أي ما أسرع ما صنعت كذا هي وصف ـ سيأتي بيانه ـ بمعنى الفعل أي وصفٌ فعلٌ .

هـ) هيهاتَ (بعُد) بُطآن (بطُؤَ) بخٍ (استحسنُ) آمين (استجبْ) حذارِ (احذرْ) ما مثالها ليست مما نعهده من أنواع الكلمة أصلاً أي من ذوات الاستعمال الثاني كما سبق بل هي أحادية الاستعمال مجرد ألفاظ مستعملة بمعنى الأفعال أي هي ألفاظٌ وأفعالٌ معاً أو ألفاظٌ أفعالٌ لا ألفاظُ أفعالٍ .

أقول : إن اللغويين حين اعتبروا تلك الأنواع وأمثالها طائفة خاصة ووضعوها تحت عنوان (الأسماء الأفعال) معتمدين على استعمالها أصلاً وفرعاً دلالة أو نقلا كما ذكرنا فلماذا لم يوسعوا دائرتها لتشمل أنواعاً أخرى مشابهة لها خواص مشتركة تؤدي الوظائف نفسها ؟ مما سنذكره في الآتي :

1 ـ المصدر النائب عن فعله مثل شرباً الماء ورفقاً بالقوارير ومهلاً أيها الطائش ورويداً أخاك . فهي أسماء تدل على فعل الطلب بنفسها ، ومثل (أفعل كذا وكرامة لك) أي واكرمك و(نَعَم وحباً وكرامة) أي أحبك وأكرمك . و(شكراً) أي أشكرك . هي أسماء تدل على الفعل الزماني ومثل (سمعك اليّ) أو (سمعاً وطاعة) بمعنى سمعتُ وأطعتُ وهي أسماء تدل على الفعل الماضي . ولا حاجة في جميعها ـ برأيي ـ إلى تقدير فعل محذوف .

2 ـ مصادر أخرى ذات استعمالات خاصة مثل سبحان الله أي ابرئ الله براءة من كل سوء . ومعاذ الله أي أعوذ بالله ، ولبّيك أي ألبي نداءك مرة بعد أخرى حيث تدل على أفعال ثمانية ومثل دواليك والمعنى دالت لك الدولة كرة بعد كرة حيث الفعل ماضٍ أو معناه طلب للرجل بالتحفز في مشيته أي تداول ثوبك من الطرفين حيث الفعل طلبي . ولا حاجة فيها كذلك لتقدير فعل محذوف .

3 ـ فعلٌ اسمٌ أي الفعل الذي يستعمل اسماً كبعض الأعلام : فتح جادَ سبَحَ يحيى يسع يعرب يعيش تغلب .

4 ـ نِعْم وبِئْسَ : ليستا فعلين بل كلمتين تدلان على الفعل الماضي لأن ثانيهما حرف صحيح ساكن خلافاً لصيغة الماضي .

5 ـ أفعالٌ أدواتٌ هي خلا عدا حاشا الجارّات لأنها في الأصل أفعال مثل نجح التلاميذ خلا واحداً أو ما خلا و... الخ ثم استعملت أدوات (خلا واحد و...) وليس ذلك بجديد فقد اعتبرها النحاة أفعالاً وأحرف جر معاً .

6 ـ بعض الأوصاف مثل (ناهيك) تقول (ناهيك بزيد فارساً) كلمة تعجب واستعظام وتأويلها أنه غاية فيما تطلبه ينهاك عن تطلب غيره فهي وصفٌ فعلٌ كسرعان مار الذكر .

7 ـ أدوات الجواب ما عدا (لا) التي تدل على المعاني السلبية حيثما وجدت .

والأدوات هي نَعَمْ بلَى أجَلْ بَجَلْ جَيْرِ وكلها تتضمن معنى فعل الموافقة والقبول و(كلاّ) وتتضمن معنى المخالفة والرفض فيها يظهر معنى الفعل واضحاً تقول لمن يريد لك السوء ويغريك باتيانه : كلاّ أي لا أجيبك إلى ذلك فارتدع عن طلبك . أما (إنَّ) التي اعتبروها من أدوات الجواب في قول الشاعر :

ويقلن شيب قد علاك وقد كبرت فقلت إنَّه

فليست من أدوات الجواب على كل حال بل هي أداة نصب في جملة اسمية والجملة الاسمية كلها تفيد معنى الجواب وقد حذف خبر (انّ) لأنه مفهوم إذ التقدير (انه قد علاني وقد كبرتُ) . نظير ذلك قولك هل الطعام أهم أم الماء فيكون الجواب (الماء) وتقول أتذهب إلى المدرسة فيكون الجواب (أذهبُ) كما تقول علمتُ بسفر أخيك إلى البصرة فيجيب السامع (إلى بغداد) أو تقول : عنده وعند أبيه مئة دينار فيرد السامع (عند أبيه) فالماء واذهب وإلى بغداد وعند أبيه هي كلمات أو جمل مثل (إنه) تفيد الجواب ولكنها ليست أدوات جواب .

هذه الأنواع السبعة هي التي خطرت ببالي أضيفها إلى الأسماء الأفعال فيكون المجموع ثمانية وربما استطاع غيري أن يكتشف كلمات أخرى مشابهة . طوائف من الكلمات لها صفات مشتركة واستعمالات متماثلة ووظائف متشابهة ، فلماذا لا نلمها ونضعها في مكان واحد ونجعلها صنفاً من الكلمات جديداً لأنها جديرة أن يكون لها كيان مستقل يميزها عن غيرها ؟ وكما حيّرني بعضها : إلامَ يرجع ؟ فقد حيّرني أن أختار لها اسماً مناسباً وعنواناً جامعاً يضمها كلها تحت لوائه فاخترت لها — بعد لأي — اسم (الوسيلة) لأنها واصلة بين المعنى الأصلي والفرعي أو موصلة المعنى الأقدم بالمعنى القديم معلوماً كان أم مجهولا .

فالوسيلة إذاً : كلمة مشتركة بين قسمين من أقسام الكلمة اتفاقاً مع أحدهما من جهة واختلافاً معه من جهة أخرى وقد تكون ذات استعمال فردي .

5 — الوصف : صيغة ينطبق معناها على المتصف وبعض ما له علاقة به بحيث يمكن تحويل ذلك البعض إذا فصلناه — إلى اسم آخر . فالوصف إذاً مركب من كل وجزء مثل أخضر وواسع من قولنا : ثوب أخضر ، ومعنى واسع . فكلمة (أخضر) معناها ثوب متصف بما له علاقة بالثوب (أي الخضرة) وهي اسم آخر ، وكلمة (واسع) أي معنى متصف بما له علاقة به (أي السعة) وهي اسم آخر ... الخ .

يصير الوصف اسماً لا وسيلة إذا كان علماً مثل خالد وحسن فتيان لأن الوصف كما قلنا اسم وزيادة وهذه الزيادة نسي أو يضعف معناها في العلمية .

كما يبقى اسماً ما دل على الوصف مثل السكك الحديد والرجلُ الرجلُ والانسان الغزال ! لأن كل اسمين هما متعادلان بدون زيادة في ثانيهما . وحتّى لو تصورنا الزيادة لما أمكن تحويلها إلى اسم مستقل مما هو من سمات الأوصاف التي مر شرحها . ومن ذلك أيضاً السكك الحديدية والتيار الهوائي والدرجة العلمية لأن الوصف غير مباشر أحدثته ياء النسب .

يشارك الوصف الاسم في كثير من الأوزان والصيغ . وأهم صيغه وأوزانه ما يلي :

1) الوصف الفاعل مثل كاتب ومجتهد

2) الوصف المفعول مثل مكسور ومعظَّم .

3) أفعل مؤنثه فَعلاء مثل أبيض بيضاء ، أدعج دعجاء ، أعور عوراء .

4) فعلان مؤنثه فَعْلَى مثل عطشان عطشَى ، جوعان جوعَى ، غضبان غضبَى .

5) الوصف التفضيلي أو المتميز يأتي على وزن أفعل ومؤنثه فُعلَى ان وجدت مثل أفضل فُضْلَى ، أحسن حُسنَى ، أعلَى عُليا . وقد عرفوه بقولهم : اسم التفضيل : اسم يدل على أن شيئين اشتركا في صفة ، وزاد أحدهما على الآخر (يا) بينما المشاركة أو الزيادة ليست دائمة فقد تكون وقد لا تكون وهاكم الأمثلة :

ا) الله أكبر : صفة للخالق وحده لا يشاركه فيها أحد . فلا كبير بالنسبة إليه .

ب) سعد أذكَى من هند : معناه أن كليهما ذكي

وزاد سعد في الذكاء. فهل يفهم هذا وحده أم قد يفهم منه أيضاً أن سعداً ذكي بالنسبة إلى هند التي قد تكون بليدة وبليدة جداً ؟!.

جـ) زوَّجَ ابنته الكبرَى : ليس معناه أن بناته كلهن كبيرات وزوّج المتقدمة في العمر فحسب بل معناه أيضاً أن بناته فيهن الصغيرات والكبيرات فزوّج التي تتفوق عليهن بسني العمر.

د) المقام الأعلى أو أعلى مقام : أي المقام الذي يختص بالعلو في درجته المتقدمة ولا علاقة له بالمقامات الأخرى سواء كانت عالية أم واطئة.

هـ) الفاتيكان أصغر دولة : ليس معناه أن جميع دول العالم صغيرة والفاتيكان دونهن في الصغر. بل معناه أن دول العالم منها الصغيرة ومنها الكبيرة والفاتيكان صغراهن.

و) الصين هي الأكثر سكاناً : ليس المراد أن أقطار العالم كلها كثيرة السكان والصين أكثر منها بل يعني أن من الأقطار ما كان كثير السكان ومنها قليله والصين هي الراجحة في الكثرة. فالمشاركة في المثالين الأخيرين مقيدة بالبعض دون البعض الآخر لا مطلقة كما يفهم من تعريف التفضيل عندهم.

لذلك كله يجب أن يكون التعريف هكذا : (الوصف التفضيلي أو المتميز هو الذي يفوق الأوصاف درجة يتميز بها أو يزيد فيها على غيره).

6 — المصطلح : كلمة ذات معنًى مقيد يستعمل منفصلاً عن معناه المطلق بعلاقة بينهما كالعموم والخصوص أو الكلية والجزئية أو غيرهما.

وضعه المتقدمون في مختلف العلوم والمعارف وشؤون الحياة في زمانهم ثم جاء المحدثون ووضعوا مصطلحات أخرى لما استجد في العصر الحاضر حتّى بلغ المجموع عشرات الألوف وهو آخذ بالزيادة يوماً بعد يوم بسبب ظهور معارف جديدة وتقدم الانسان في ميادين الحضارة من جهة والحاجة إلى ترجمتها وتعريب ما تشتمل عليه كلماتها من جهة أخرى نجد ذلك مثلاً في العلوم الطبيعية والرياضية والطبية والصناعية والتقنية والعسكرية كما نجده في العلوم الدينية واللغوية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفنية وفي سائر ضروب المعرفة الانسانية وما له علاقة بالحياة. لذلك لا يخلو أي كتاب علمي من المصطلحات التي تدل عليها تعريفاتها وشروحها ، ولا حاجة إلى أمثلة منها فحسبنا ما جاء في بحثنا هذا من مصطلحات أقسام الكلمة وفروعها منقولة أو مستحدثة.

7 — الرمز : لفظ مكون من حرف فأكثر يرمز كل حرف فيه أو مجموعه إلى كلمة أو جملة أو عبارة اختزالاً للفظها أو اختصاراً لمعناها. وأبرز مثال له ما ورد في الكتاب الأعز : ق، ن، حم، يس، الم، الر، كهيعص. ومثل (كشاجم) اسم رجل وهو لفظ مركب من حروف هي أوائل كلمات وهو أنه لقب به لكونه كان كاتباً شاعراً أديباً جميلاً مغنياً فجمع ذلك كله (تاج العروس). ومثل (واع) أي وكالة الأنباء العراقية ومثل (مانش) أي محمد بن ابراهيم بن ناصر الشمّري. كما يمكننا أن نصنع رمزاً لأي اسم أو عنوان أو معنًى وذلك بأن نجمع أوائل أحرفه أو أواخرها أو بشكل آخر في لفظ كما يحدث في المستعارات والبرقيات والعناوين وغيرها من مواضع الاختزال أو الاخفاء.